

جدلية الزمان والإنسان في قصيدة " الصديق الوحيد"*

د. صالح هويدي

إلى ولدي الطيب ذي الأربعة أعوام

تبدأ قصيدة الشاعر عارف الساعدي بحديث الشخصية عن نفسها في زمن الحضور، من خلال ضمير المتكلم، متخذة من أسلوب النفي صيغة لمفتتح القصيدة الاستهلاكية المعلنة عما آلت إليه حال الشخصية من وحدة ومعاناة تتجلى رويداً، إثر تفرق شمل الأصدقاء، حتى أنه لم يبق للشخصية الرجل اليوم منهم سوى ابنه الصغير الذي حلَّ محل الأصدقاء القدامى:

" لم يتبقّ من أصدقائي أحد "

ولدي الصغير هو صديقي الجديد".

وإذ يعلن الأب عن هذا الواقع كاشفاً عن جانبٍ مما يعيشه، فإنه لا يكتفي به بل يستمر في كشف أوراقه مع الأصدقاء، في المقطع التالي للمفتتح الاستهلاكي، مستبدلاً بزمن الحضور الذي مرّ بنا زمن الماضي الذي يأخذنا إليه سراعاً ويستغرق النص، مثلما يستبدل بصيغة الإفراد الملائمة لوحده (كنتُ) صيغة الجمع التي تلائم مشهد الأصدقاء قبل تفرّقهم (كنّا):

" كنْتُ ممتلئاً بالأصدقاء "

كنّا

نجوبُ الشوارع

ضحكائنا تملأُ شقوقَ الحيطان

وتتسرّبُ أغانينا

مع الأنهرِ الصغيرة

كنا نسيرُ على أقدامنا

ونحلّمُ أنْ نشترى سيارةً ولو صغيرة

نجوبُ بها شوارعَ بغداد".

ولعل أول ما نلحظه على شريط وصف الشخصية للأحداث التي عاشها صاحبها مع أصدقائه القدامى في هذا المقطع، وصفها لحياتها معهم في ماضيها بالامتلاء، وهو وصف يستدعي الحالة المقابلة لها، التي صورها لنا النصّ بين الحاضر والماضي، بين التجمّع والتفرّق، وإن لم يُشر صراحة إليها حتى الآن. من هنا فإن الشخصية تنطلق من هذا الواقع المفارق الموصوف بالامتلاء إلى ذكر التفاصيل أو الحثثيات إن شئت للتدليل على هذا الوصف المقتضب العام الواسع الذي بدأت به، وأعني بذلك ذكر الأب جوبه مع أصدقائه الشوارع، وضحكه معهم ضحكاً ملاً شقوق الحيطان، وغنائه معهم غناء تسرّب مع الأنهر الصغيرة، والسير مع أولئك الأصدقاء على الأقدام، حاملين بشراء سيارة حتى وإن كانت صغيرة، ليجوبوا بها شوارع بغداد. لكنّ عدم امتلاكهم أو قدرتهم على شراء سيارة لم تكن لتعني في حينها أنهم غير راضين أو غير سعداء بما هم عليه، فلقد سبق أن تكرر جوبهم الشوارع مصحوباً بالضحكات والأغاني، والضحك والغناء علامة من علامات الفرح والسرور، وأنّ وجود الطموح لا يلغي حالة الفرح أو ينفىها. ولعل ما يؤكد هذا الأمر ما ورد من وصف لحالة امتلاكهم السيارة والهدف منها، وهو أن يجوبوا بها شوارع بغداد التي يحبون.

ولنا أن نقف على بواعث وصف ضحك الأصدقاء في النصّ أنه ملاً شقوق الحيطان، والصياغة هنا إنما أريد لها الإيحاء بمشاركة الطبيعة الأصدقاء سعادتهم التي فاضت على الجدران فملأت الثقوب

السلبية التي تركها فيها الزمن، لتجعلها (الطبيعة) ممتلئة، ولتعيدها سوية كما كانت، ومشابهة لحالتهم المثالية التي هم عليها (ممتلئين ببعضهم). ولم يقف أمر إحساس الأصدقاء بالطبيعة أو إحساسهم بالعلاقة في ما بينهم وبينها عند هذا الحد، بل ذهب الوصف إلى أبعد من ذلك، حين قدّم لنا لوحة وصف أخرى أشد تعبيراً عن حالة الفرح والانتشاء التي كان عليها الأصدقاء (الغناء). وهي حالة طريّة أكثر تعبيراً من حالة الضحك العفوي ولا ريب، لنجد تلك الأغنيات التي كانت تصدر عنهم وقد تعدّتهم لتفيض متسرّبة إلى الطبيعة في مظهرها الجديد ثانياً (الأنهر الصغيرة) راسمة لنا صورة من التمازج العضوي بين أصدقاء الأمس وعالمهم المحيط بهم:

"و حين أصبح كلُّ واحدٍ منا

يملكُ سيارة

رُحنا ندور في شوارع بغداد

معزولين ومنعزلين ومنفردين".

لكنّ السطور الأربعة من المقطع الجديد تنقلب كاشفة لنا عن ذلك التحول الذي بدأ يدب في حياة الأصدقاء وعلاقاتهم، وذلك بعد أتاحت الأيام لأولئك الأصدقاء تحقيق أمنيتهم بعد كدّهم واجتهادهم، ليحصل كل منهم على السيارة المُتمنّاة، وليجوبوا بها شوارعهم التي يحبّون، ولكن أيّ جوبٍ ذلك الذي تحقق لهم؟

تخبرنا لشخصية أن امتلاك الأصدقاء السيارة قد تحقق، لكن النصّ يعدلُ عن وصف حركة سيارات الأصدقاء على النحو الذي وصفه من قبل وتمنّوه (الجوبُ) ليبدو هذه المرة في هيئة دوران، وهي هيئة لا تدل على الامتداد في السير، بقدر ما توحى بالالتفاف حول المركز أو النفس. يعمّق من هذا الإحساس الصفات اللاحقة في السطر التالي التي تُظهر هؤلاء الأصدقاء بمظاهر معبرة موحية

بالسلبية، من العزل والانعزال والانفراد؛ ذلك أنها تقف في الضد من معاني الانضمام والتكامل والاجتماع. لقد كان الاعتقاد لدى الشخصية، ومن ثم الأصدقاء، أن امتلاكهم السيارة سيكون باعثاً على سعادات أكبر وأفراح أوسع، بعكس ما انتهوا إليه من نهايات مفاجأة. من هنا وجدنا صيغة الوصف الإخباري التي طغت على مقاطع القصيدة الثلاثة وقد تغيرت إلى صيغة السؤال والاستفهام، لتنتهي إلى استنتاج خيباتٍ لم نجد لها أثراً في زمن الأصدقاء السابق. فلم يعد المذاق حلوّاً مستذاقاً بل مرّاً يُنبئ عن المرارة والحسرة، بعد أن نأت الوجوه ولم تعد تتلاقى.

ولعلّ من الطبيعي أن يكون زمن المرارة هو المساء، لا الصباح أو النهار. ولا شك في أن تساؤل الشخصية (الأب) عن طعم المساء هنا لم يكن استفهاماً في حقيقته، بل هو نفي في صيغة الاستفهام؛ لأنه أراد أن يقول: إنه لم يعد للمساء أو المساءات من طعم. كما أن المساء يحمل في أحشائه هنا دلالة على خلوّ الزمان في معناه الشامل الأعم من الطعم. ولعل ما يؤيد ذلك استمرار الشخصية في التساؤل أو قل إنكار وجود طعم لمدينتهم، فأبي طعم يمكن أن يكون لها وقد غابت الضحكات عنها غياباً نهائياً، لم يجد النصّ طريقة للتعبير عن ذلك الغياب إلا بهذه الصيغة الاستعارية شديدة الإيحاء (التحقّي) بعد أن كانت جدرانها تمتلئ بها وتكتظ شقوقها بحضورها. وهكذا يخلو المساء والمدينة من الأصدقاء وضحكاتهم، ويُعري الزمان والمكان منهما، ليفقدا صورة العلاقة المثالية التي كانت تؤطرهما وعبر النص عنها من قبل، لتنتهي الشخصية إلى النتيجة الصارخة التي تقررها في شكل استغاثة إلى باري الكون ومبدع الحياة والخلائق جميعاً. إنها (الوحشة) إذن تلك التي انتهت إليها حال الأصدقاء، وإنها العودة إلى السطر الأول من البنية الاستهلالية للقصيدة، حيث بدأت بهذه النتيجة: "لم يبق من أصدقائي القدامى أحد":

"أبي طعم لهذا المساء الخالي من وجوههم

أبي طعم لهذه المدينة الحافية من ضحكاتهم

إنها الوحشة يارب

لم يبق من أصدقائي القدامى أحد".

وإذا كان السطر الثاني من البنية الاستهلالية التي افتتحت بها القصيدة قد انتقل من الإخبار بأنه لم يتبق للشخصية من الأصدقاء القدامى أحد، فإن السطر الذي تلاه جاء مكتملاً لهذا المفتوح، ليخبرنا بأن ولد الشخصية قد أصبح صديقه الجديد أو البديل إن شئت. ولذا فإن المقطع الرابع سيتابع هذا الخيط مجدداً، مضيفاً للعبارات العامة الكلية جزئيات تكمل ملامح الصورة دافعة بها إلى النمو الدرامي. وسينشغل المقطع الجديد طويلاً بالابن الصغير والصديق الجديد، متابعاً العلاقة الجديدة معه، في المساءات التي يصعدان فيها السيارة قاصدين التسوق، ليقف عند مظاهر الحديث مع الصديق الصغير، والضحك والثثرة وشراء ما يبتغيانه. ويأتي تكرار لفظة (معاً) ثلاث مرات بغية الإيحاء بالمشاركة التامة والتفاعل في ما بينهما. لكن من العلامات السيميائية اللافتة تكرار هذا الجزء من المقطع ذكر الصديق الوحيد المتبقي، والصديق الوحيد مرتين خلال تسعة سطور. وفي ذلك دلالة سيكولوجية تُضمّر إحساساً بالفقد لم يندمل ووجعاً لم يتم تجاوزه بعد.

وتزداد ظاهرة التكرار كلما تقدم بنا النص، فإلى جانب تكرار ذكر مفردة (معاً)، وعبارة الصديق الوحيد المتبقي، ثمة تكرار لمفردة (كيف) ثلاث مرات، للتساؤل عن كبر الابن، وكذلك تكرار لكلمة (يكبر) ثلاث مرات. لكن هذه الكلمة المفتاحية تفاجئنا في صياغتها التي دهمتنا بها، للتعبير عن مشاعر الأب، تعبيراً مفارقاً لأفق توقعنا. فخلافاً لرغبة الآباء في رؤية أبنائهم يكبرون بسرعة، يطالعنا النص بمخاوف الأب في أن يكبر ابنه، وبرغبته في ألا يكبر بل والتفكير في أي وسيلة يمكنه معها ألا يجعله يكبر! ولن نفهم سر هذه الرغبة المخالفة للطبيعة الفطرية للأب إلا بعد أن نتابع نمو القصيدة.

وفي هذا الصدد سنجد النص يعمد إلى الصياغات المجازية الطريفة والاستعارات الماتعة في التعبير عن رغبة الأب في منع الابن من الكبر، والحيلولة دون تحقق ذلك، إنْ بِالِهائِهِ لِلبِقَاءِ صَغِيرًا أَوْ شَدَّ حبل طفولته بصخرة الزمن المتهاوي. وهي صورة موفقة في إحكام صياغتها، بعد أن تحوّل معها الزمن إلى هدف مفزع، ليجد مُعادلَه الرمزي في تلك الصّخرة المتهاوية. فأما الصخرة فقد استدعاها النصّ لكونها ثقيلة تنذر بالجرّ والتدحرج اللذين يخشاهما الأب، وأما التهاوي فلأنه يتضمّن دلالة السقوط وحتميته الآيلة نحوها هذه الصخرة، وأما الحبل الذي بدا حبل طفولة الابن، فلأنه الوسيلة الوحيدة المتاحة لشدّ الأب هذه الطفولة المربوطة إلى صخرة الزمن، ومحاولته العابثة في إيجاد وسيلة ما للإمساك بالحبل من خلال هذه الصورة الخيالية. وبسبب الشك الذي يداخل الأب في النجاح في ما يحلم به، نراه يلجأ إلى الله متسائلاً عن السبيل إلى إقناع ابنه ألا يكبر:

كلّ مساء

ولدي الصغير

يصعدُ معي سيارتي

هو وحده من تبقى من أصدقائي

نتحدّث معا

نضحكُ معا

ونثرثُرُ معا

نشترى من السوق ما نشاء

فهو صديقي الوحيد

ولكنه سيكبرُ أخشى أن يكبرَ

كيف أقنعهُ ياربُ

ألا يكبر

كيف لي أن أشدَّ حبلَ طفولتهِ

بصخرةِ الزمنِ المتهاوي

كيف لي أن ألهيهُ في البقاءِ صغيرا

ولأن التسليم بحقيقة (الكبر) هو الذي سيطغى أو يترسب في نفسِ الأبِ فإننا سنجدُه ينطقه مرغماً، في شكل استدراك (ولكنه سيكبر)، ليكشف حينذاك عن سرِّ رغبته غير المفهومة، وربط ذلك بتاريخ الأبِ ووقائعِ الزمان. فابنه حين يكبر سيحبُّ ويغازلُ بناتَ الجيران، وينشغلُ عنه، ولن يفهمه، كما سيكون كلام الأبِ ثقيلًا على مسمعه؛ لأنه سيبدأ بالاستقلال ويجد نفسه في موقع أقرب إلى الأبوة منها إلى البنوة، وذلك مصدرُ خوف الأب من ألا يبقى صديقاً له، بل نجد الأب يستعيد شريط الأمس في ذهنه، حين يبدأ بتوقع تبديل الابنِ صديقَه القديم إذا ما كبر، وبعد أن يكتشف أصدقاء جددًا له، يضحك معهم، ويملاً شقوق الحيطان المتهالكة، ليصعد معهم سيارتهم، ويجوب شوارع بغداد معهم.

ولعل هذا هو الأهم؛ لأنه يعيد مرارة سيرة الأمس التي مرَّ بها الأب واستقرت ذكرياتها في نفسه. ولذا نجده يكرر عبارة تبديل ابنه صديقه، وعبارة اكتشافه أصدقاء جددًا، وعبارة الصديق الذي تحول إلى أب، وعبارة لن نكون أصدقاء:

ولكنه سيكبر

وحينها سيبدل صديقه القديم

سيكتشف أصدقاءً جددًا سيضحك معهم

وسيملاً الشقوقَ

شقوق الحيطان المتهاكّة

سيجوبُ شوارعَ بغداد معهم

وسيصعدونَ سيارةً واحدةً

سيحبّ

ويغازلُ بناتَ الجيران

سوفَ لن يفهمني

فالصديقُ تحوّلَ إلى أبٍ

وثقيلٌ كلامُ الآباءِ دائماً

وفي جزءٍ متقدّمٍ من المقطع، حين يصبح تحوّلُ الابن حقيقَةً مسلماً بها وقارةً في نفسِ الأب، يتحول أسلوبُ النصِّ من صيغة السرد بضمير الغائبِ عن الوقائعِ إلى صيغة الخطابِ الموجهِ للابنِ على نحو مباشر. وأحسب أنّ في اختيار صيغة الخطاب محاولة للإيحاء بالاقترابِ الأكبر من الابن؛ لأن الحديث سيكون أقرب إلى الهمس والمباشرة والحوار منه إلى الرواية بصيغة الغياب. وهو السلاح

الجديد الذي قد يراه الأبُّ أقربَ إلى إيصال رسالته إلى الابن على نحو مباشر، بل قد يكون في هذا العدول فرصة للتعبير عن مشاعر الرجاء والاستعطاف التي لا تتيحها صيغة الرواية بضمير الغائب. حينذاك سيتمكّن الأب من إخباره بأنه لن يكون صديقه الذي يركض إليه ليحضنه، كلما عاد من عمله كما كان يفعل، وأنه سيخجل ولن يقوم بتقبيله كل يوم، بل في المناسبات الرسمية التي تستدعي ذلك، بدافع الواجب أو المجاملة لا غير، وأنها ستكون باردة وخفيفة أيضاً:

وحيثُ تكونُ ولداً

وأكونُ والداً لنُ نكونَ أصدقاء

لنُ تركضَ كلَّ يومٍ لتحتضنَ صديقك

حينَ يأتي من عمله

سوف تخجلُ كثيراً

تخجلُ أنُ تقبلَ أباك يوماً

ستكونُ القبلُ فقط

في المناسباتِ الرسمية

وستكونُ قبلاً خفيفة

ودائماً للمجاملة

بعدها سيعود النص في ختامه إلى صيغة السرد بضمير الغائب، ليتولى استكمال روايته واختصارها، بلملمة ما تبقى، من خلال الإمساك بتلابيب الزمن -الثيمة الأساسية في القصيدة- مشيراً إلى تقدم الزمان، ومضيفاً عليه صفة الدوران هذه المرة، حيث يأتي اليوم الذي يصعد فيه الأب في المقعد المجاور لابنه الذي يأخذ صديقه العجوز إلى المستشفى، من دون أن يتحدثا أو يضحكا أو يثرثرا مع بعض. وتزيد الرواية بأنه لن يُعجب الابن، من صديقه الشاعر العجوز، أي شيء، لكنّه يعود ليستثني من ذلك القطع أو التعميم شيئاً واحداً هو، أنه كان في القصيدة!

في هذه الأسطر إيجاز للفكرة الأساسية للنص، مع بروز بعض العلامات السيميائية الدالة، منها أنّ استعمال عبارة (سيدور الزمان) إنما أُريدَ بها صار الابن هو الذي يقلّ الاب بعد أن كان الأبّ يجوب به الأمكنة، كما تعني أنّ اصطحاب الابن الأبّ جاء مختلفاً عن طقس اصطحابه هو لابنه في ما مضى، فهو هنا جاء مقصوداً على أداء مهمة أو واجب محدد هو الوصول بالرجل العجوز إلى المستشفى، ولم يكن بدافع التنزه أو الشراء أو المتعة. كما أن هذا الاصطحاب خلا من تبادل الحديث والضحك والثرثرة التي كان الأب مصدرها فيما مضى، إلى جانب الإضافة الأخيرة التي يكشف عنها النص، وهي أنه لن يُعجب الابن شيء من صديقه العجوز إلاّ كونه كان جزءاً من القصيدة. وهذا لا يبدو استثناء، بقدر ما هو تأكيد لحقيقة أنه لن يعجب الابن من العجوز شيء قط؛ لأنّ الاعجاب هنا منصرف إلى الذات، وكونه ممثلاً في القصيدة، فهو ضرب من الأنانية. أما ظهور صفة الصديق أو عودتها للأب مجدداً في السطور الأخيرة من المقطع، فإنّ هذا الحضور لم يؤكد دلالة الصفة، بقدر ما نفاها من المفردة؛ فأيّ صداقة هذه التي يصطحب أحد أحداً تحت دواعي الواجب، ومن دون أن يحادثه أو يضحك معه أو حتى يثرثر، بل من دون أن يعجبه شيء فيه. وهي نتيجة مريعة قاسية تخيلها الأب، وحقّ له الخشية منها:

وسيدورُ الزمان

وأصعدُ في المقعدِ المجاور لهُ

حين يأخذ صديقَه العجوز إلى المستشفى

لن نتحدث بشيء

لن نضحك معاً

أو نثرثر

وسوف لن يعجبك من صديقك الشاعر العجوز أي شيء

سوى أنك كنت هذه القصيدة

هكذا تكشف قصيدة (الصديق الوحيد) عن حضور ملمحين بارزين، سعت إلى استجلائهما، هما: الصداقة والأبناء. وهما الملمحان اللذان أكسبها تأثيرها في المتلقي، لملامستهما مشاعرنا الإنسانية، مجسدة أمامنا مصيرنا المحتمل، المتمثل في معاناة تجربة الفقد في حياتنا، لمن يحيط بنا من أحبة؛ أصدقاء وأبناء، بحكم تبدل الأحوال. ولما كنا بشراً لا نستطيع العيش دونما علاقات صداقة إنسانية، ودونما تواصل أو مشاعر محبة بيننا وبين أبنائنا، فإننا سنظل نتألم كلما فوجئنا بتغير هؤلاء، ومفارقتهم أفق توقعنا. لكن هذين الملمحين اللذين منحا النصَّ طابعه التراجيدي لم يكونا الموضوعة الأساسية أو الفاعل الذي كان محركاً للوقائع التي انشغل بها النص، وأسهم في نموها والانتهاج بها إلى تلك النهاية المأساوية، بل إن الفاعل الأساسي والمحرك الحقيقي لكل ما حدث إنما هو (الزمان) الذي يغلفنا بغشائه، ويترك أثره في سلوكنا في كل حين، لنكشفَ عن عادات جديدة، وأفكار مختلفة، وقناعات مخالفة، وقيم مغايرة. فهو من هنا البطل الذي حرص النص على الإبقاء عليه مضمراً في أحشائه، تاركاً للمتلقى تعقب آثاره وتقصي علاماته السيميائية المترددة بخفاء.

والسؤال الذي أجد نفسي مدفوعاً إلى طرحه هو: هل كان الابنُ الصغيرُ الصديقَ الأخيرَ للأب الذي فارقتَه وجوه الأصدقاء، إن كنا سنعتمد على ما أراد الشاعر أن يجعله عنواناً للعبة الأولى لقصيدته؟ ولعلنا نستطيع أن ننوع على السؤال بسؤال آخر هو: هل كان الابن صديقاً بديلاً عن أصدقاء الأب القدامى حقاً؟

إن أهمية هذين السؤالين إنما تكمن في أن الإجابة عليهما ستكشف لنا عن حجم المأساة التي لحقت بالرجل، واتساع المعاناة التي سيكابدها في الحياة.

.....

*عارف الساعدي: قصائد العائلة: ط1 دار صوفيا، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، 2023.